الفصل الأول

في شرعية القول بالتنزل الجديد:
مداخل تأسيسية

obeikandl.com

obeikandl.com

أولا:

هل ثمة حاجة
إلى تفسير جديد للقرآن الكريم؟!

1 - مدخل: في شرعيّة السؤال:

كان مما تواتر في التاريخ وتناقلته الصحف على امتداد الزمان وصف الذكر الحكيم بأنه كتاب لا يخلق على كثرة الرد، وربما صح أن يفهم في أصول التفسير على هامش هذا الوصف الجامع اتساع حدود مرونة النص الكريم، واكتنازه بما لا يتصور من الدلالة والحكمة معا.

وهو الفهم الذي يؤازره تشجيع نفر من جيل الصحابة، ومن بعدهم أجيال التابعين في مثل القول الذي يقول: «إلّا رجلًا آتاه الله فهمًا في كتابه» وهي مظلة ترقى بأصحاب النظر في كتابه الكريم إلى منطقة مائزة يحوطها التكريم والحفاوة؛ حتى كان ابن حنبل رحمه الله تعالي فيما أخرجه البيهقي في كتابه «مناقب الشافعي» شديد الحفاوة بعمل عقل الإمام الشافعي في كتاب الله تعالى.

وبما يشبه القاعدة في أصول التفسير صكّ ابن عباس رضي الله عنهما قولته على حداثة سنه الذائعة الصيت: «القرآن يفسره الزمان»، وهو ما يعني أن لكل زمان مطالبه التي يوفيها النص حقها مع دوام النظر، والفحص والتفتيش في الذكر الحكيم.

وفي سبيل التمهيد للإجابة عن السؤال الذي تقدم في العنوان بالإيجاب يحسن بنا أن نسوق الملاحظات التالية:

أولا: ظهرت ملامح العناية بتفسير الذكر الحكيم ابتداء بما جمعه علماء الحديث النبوي الشريف من أحاديث النبي ﷺ التي فسر فيها عددًا من آيات الذكر الحكيم، وهو ما تجلى في أبواب التفسير في كتب الصحاح على ما يظهر مثل له في صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه.

ثانيًا: سرعة ظهور تيار واسع بين الصحابة والتابعين يرعى تفسير القرآن الكريم بغير طريقة رواية الآثار النبوية الكريمة، بمعني أن عددًا من الصحابة والتابعين اجتهدوا في مواجهة الذكر الحكيم بهدف تفسيره وبيانه، ولعل المحاولات المتقدمة على يد ابن عباس رضي الله عنهما فيما عُرف تاريخًا بسؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس التي تأسست على إعادة استثمار الشعر العربي الجاهلي القديم، بما هو أساس ودليل وشاهد على صحة ما فسره الصحابي الجليل، وهو نوع من أنواع التفسير المخالف بدرجة من الدرجات لمدرسة رواية الآثار النبوية في الميدان نفسه.

ولم يكن مجهود ابن عباس رضي الله عنهما فذًا وفريدًا في هذا السياق؛ ذلك أن جهودًا أخرى ظهرت في السياق الزمني نفسه من أمثال جهود أبي الدرداء، وابن مسعود، ومجاهد التفسيرية، مع وجود بوادر قليلة في تأويل القرآن، فيما روي في سياق التدليل على منزلة ابن عباس في باب تفسير القرآن الكريم.

ثالثًا: اتساع تيارات التفسير بالرأي المحمود، وهو اتجاه مخالف لمدرسة المرويّات التفسيرية، التي عُرفت منهجيًا بمدرسة التفسير بالمأثور، وقد اندرج تحت هذه المدرسة التي فسرت القرآن بالرأي مجموعة كبيرة من المدارس الفرعية من مثل

أ – مدرسة التفسير الفقهي (تفاسير الأحكام).

ب – مدرسة التفسير اللغوي والنحوي (تفاسير معاني القرآن).

جـ – مدرسة التفسير البلاغي أو الإعجازي.

د – مدرسة التفسير العلمي (وهي مدرسة قديمة في التراث التفسيري عند المسلمين).

هـ – مدرسة التفسير الحركي (وهو اصطلاح صككناه؛ بما لاحظنا من تأمل تفسير الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله (في ظلال القرآن).

وقبول الأمة بهذه المدارس الفرعية على امتداد تاريخ العناية بتفسير القرآن الكريم دليل حاسم على الإيمان بضرورة تجديد التفسير للذكر الحكيم جيلًا بعد جيل.

رابعًا: الإيمان بأن القرآن هو الكتاب الخاتم يبعث على وجوب تجديد النظر فيه للوفاء بمتطلبات الأمة التي تتجدد من عصر لآخر.

هذه العلامات الأربعة السابقة تشير من طرف غير خفي إلى أن ثمة اتجاهًا ظاهرًا يقرر أن الأمة أجابت على السؤال المتقدم عنوانًا بالإيجاب بما كانت تفجره من مدارس واجتهادات في جانب تفسير الذكر الحكيم.

obeikandl.com

من التفسير الحركي
إلى التفسير الحضاري

(السير في اتجاه مطالب العصر)

إن فحص بعض جوانب المنجز التفسير للقرآن الكريم في العصر الحديث، في القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي، يقود إلى أن ظهور (في ظلال القرآن) تعيينًا، وبعض اجتهادات أبي الأعلى المودودي، وسعيد النورسي، وفتح الله كولن في (أضواء قرآنية) يمثل ظهورًا لا يخفى لما يمكن أن يسمّى بمدرسة التفسير الحركي، و يقصد به تفسير النص القرآني الكريم بما هو نص كبرى غاياته ضبط حركة الجماعة المسلمة، وهو التعبير المعاصر لغاية الهداية التي تنوع التعبير عنها في الذكر الحكيم، بما هي غاية حاكمة لنزوله، وهو ما يظهر في أمثال قوله تعالى:

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة 2/ 2)
- ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ (سورة البقرة 185/ 2)
- ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (سورة النحل 102 / 16)
- ﴿تلك آيات القرءان وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين﴾ (سورة النمل 2/ 27) إلى غير ذلك مما هو مبثوث في الذكر الحكيم.

وإذا كان تفسير (في ظلال القرآن) وما ظهر بجواره من محاولات أقل اكتمالًا منه أسهمت في نضج الحركة الإسلامية في العصر الحديث، وما تزال تمارس هذه الجهود التفسيرية الحركية تأثيرها في إلهام أبناء هذه الحركة، ذلك أن طبيعة المرحلة التي تطيف بالأمة المسلمة اليوم في مركزها العربي، وما بدأ يظهر من علامات الوعي والإفاقة في هذا المحيط يفرض علينا معاودة النظر في الكتاب الحكيم من زاوية جديدة توائم متطلبات هذا العصر الجديد، ولعل مطالب هذه اللحظة تفرض افتتاح باب جديد نفسر فيه الذكر الكريم تفسيرًا حضاريًّا بما يرعى مراد الله تعالى في أن تكون الأمة المسلمة قائمة بواجبها في الحياة، بما هي الأمة المهيمنة، والأمة (العليا) التي توظف علوها من خبرتها وإيمانها، ولا سيما في ظل ما يعرف عن معاني القرآن الكريم من أنها متزاحمة وليست متخاصمة أي كثيفة مكتنزة.

إن مفهوم الحضارة بما هو مواجهة الحياة بكل إيجابية، وبكل ما من شأنه قهر التوحش والهمجية والجفوة، مراد ظاهر من مرادات الإسلام، وغاياته العظمي وقد صحَّ أن القرآن الكريم ضد كل ما هو سلبي، والحضارة التي ينشدها هي الحركة في الحياة بإيجابية تامة.

إن الدعوة إلى تفسير القرآن الكريم تفسيرًا حضاريًا مطلب مُلحٌّ، ولا سيما أننا مازلنا نعيش أجواء قرون مظلمة أصبح فيها العالم الإسلامي «مهددًا بزوال هويته الحضارية» على حد تعبير «خالص جلبي» في كتابه (النقد الذاتي: ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، طبعة مركز الراية المعرفية، بدمشق 2007م ص 35) وإن كان هذا العالم الإسلامي اليوم أيضًا لم يمت حضاريًا.

في التفسير الحضاري:
محاولة جديدة لتفسير
يراعي مطالب المرحلة

إن تأمل القرآن الكريم منذ نزوله على قلب النبي ﷺ في مكة المكرمة يمكننا من استخراج ركيزتين ظاهرتين لما يمكن أن يسمى بالتفسير الحضاري للقرآن الكريم، يمكن إجمالهما فيما يلي:

أولا: ركيزة تأمين الحياة الإنسانية.

ثانيًا: ركيزة تنمية الملكات الإنسانية.

وسنحاول في السطور التالية تأمل الذكر الحكيم تعاطيًا مع هاتين الركيزتين بما هما برهانان على حاجة الأمة إلى تفسير القرآن تفسيرًا حضاريًّا.

أولًا: تأمين الحياة الإنسانية - محور من محاور التفسير الحضاري للقرآن الكريم.

إن القرآن المكي وفحصه وتأمله يقود إلى ما يمكن التعبير عنه بقولنا: إن الله تعالى لم يدع أحدًا إلى عبادته إلا بعد أن أحاط جيل الدعوة بعلامات ظاهرة ترعى تأمين حياة الإنسان بدنًا ونفسًا.

وفي هذا السياق أرجو أن نتأمل معًا النقاط التالية:

1 - استقر منذ نزول القرآن المكي محورية رعايته لتأمين الحياة

obeikandl.com

الإنسانية حتى أنه ليصح أن نقرر أن الله تعالى أمر بعبادته بعد كفالة من دعاهم، أليس هو القائل سبحانه ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ (قريش: 3 – 4)

وهو ما يعني أن القرآن المكي يرى أن الأمر بعبادة الله تعالى إنما كان منه بعد استقرار الحياة الإنسانية، واستقرار توفير مادة بقائها، فيما حققه لهم من إجراءات الحصول على الطعام، وجعله عادة مألوفة، ومصحوبة ببعض نوع من المتعة والرفاهية في طريق الحصول عليه من سفر في رحلة شتوية وصيفية.

ولم يكن الحصول على الطعام بما هو مادة بقاء الأبدان معزولًا عن مطالب أمن النفس، وإنما كان مشمولًا بتحقيق أمن النفس، بما فرضه في الزمان (الأشهر الحرم) وبما فرضه في المكان، حيث أحيطت مكة وقريش بمواقيت مكانية من جهاتها جميعًا، لأعماق ممتدة بلغت أحيانًا آلاف الأمتار وأحيطت تشريعيًا بالأمان التام.

2 – وقد استقر كذلك أن ثلثي رحلات الجماعة المسلمة الأولى كان لتحقيق مطالب تأمين الحياة الإنسانية، بمعني أن رحلتين من مجموع ثلاث هجرات هي هجرة الحبشة الأولى والثانية كانتا لطلب الأمان وحفظ أبدان المسلمين الأوائل في مقابل هجرة واحدة كانت لطلب الإيمان.

3 – وقد استقر كذلك أن غالب العقوبات المكفّرة للجنايات في الشريعة الإسلامية رعت جانب تأمين الحياة الإنسانية، إنْ بتحرير الرقاب، وإنْ بإطعام الأبدان، وإنْ بكسوتها.

4 – وقد استقر أن عددًا من مناسك الإسلام رعت جانب تأمين البدن، فجعلت الإطعام سبيلًا إلي إقامة الشعائر والمناسك؛ في الهدي، والأضاحي، والعقائق، والولائم، وغيرها، ثم استقر كذلك امتداح الإنسان المؤمن في الذكر الحكيم بوصفٍ جامع دوَّار هو إطعام الطعام على حب الله تعالى أصناف العاجزين من خلقه سبحانه.

5 – وقد استقر كذلك أن محورين من محاور عناية الله تعالى بمحمد ﷺ قبل بعثته توجها إلى إيوائه، وإغنائه، وما الإيواء والإغناء إلا قيام بموجبات تأمين البدن إطعامًا وكسوة وإسكانًا وتزويجًا وتمليكًا.. إلخ.

لقد منّ الله على نبيه فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: 6 – 8) فكان مجموع ما منّ به سبحانه عليه مُفضيًا إلى تقرير أن القرآن المكي جعل محور تأمين حياة الإنسان أساسًا أصيلًا في التصور الإسلامي، شريطة أن نفسر القرآن الكريم تفسيرًا حضاريًا.

6 – وقد استقر أيضًا حفاوة القرآن الكريم بأصل تأمين الإنسانية في نفسه، بما ورد منذ نزول القرآن في مكة من تعانق حفظ مادة بدن الإنسان بتحقيق أمن نفسه، على ما ظهر من آيات سورة قريش، وعلى ما تواتر في الشريعة، ونصوصها العالية من حرمة تفزيع النفس، وحياطتها بما يحقق أمنها بكل صنوف الندب والتكريم.

ثانيًا: تنمية الملكات الإنسانية: محور من محاور التفسير الحضاري للقرآن الكريم.

وفي خطوة تالية متعانقة مع صاحبتها يمكننا أن نقرر أن القرآن المكي يقف أمام محور تنمية الإنسان، بما يقود إلى تقرير أنه محور آخر مركزي من محاور قيام الأمة المسلمة بواجب سيادتها وهمينتها وعلوها، إذا ما تحاورنا مع القرآن الكريم من زاوية منهجية تفسيرية جديدة، وهي زاوية التفسير الحضاري.

وهذا المحور المركزي، نرى أن يُوزَّع على ثلاثة فروع متكاملة غير متنافرة، وهي:

أ - تنمية الملكات العملية (عمل الجوارح).

ب - تنمية الملكات العقلية (العلم).

جـ - تنمية الملكات النفسية (التزكية).

وفيما يلي محاولة موجزة للتحشية على بنود هذا المحور من محاور النظر في الكتاب من زاوية التفسير الحضاري.

أ - تنمية الملكات العملية:

إن المتأمل لطبيعة الفكرة الإسلامية، في نصها الأعلى، وفي تطبيقات صاحب البلاغ ﷺ، يجد عجبًا في هذا الباب، إذ قد توافرت العلامات التالية بشكل يبعث على التأمل الجاد:

1 - جاء النبي ﷺ وقد كان شغله منصرفًا نحو تغيير ثقافة العرب نحوالمهنة والعمل اليدوي، بما رتبه من أجر العمل اليدوي:»من بات كالّا (متعبا) من عمل يده بات مغفورا له» وبوصفه لليد الخشنة من أثر العمل الشاق بأنها يد يحبها الله ورسوله، وبما عاون فيه صحابته في الأعمال اليدوية، جمعًا للحطب، وحملًا لنتائج حفر الخندق، وحَطمًا لصخور خيبر.. إلخ.

2 - فشا في الذكر الحكيم الإخبار عن الأنبياء جميعًا بأنهم عملوا أعمالا يدوية مهنية في البناء ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ (البقرة: 127) ومنها الحدادة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾(الأنبياء: 80).

3 – ربط الله سبحانه بين أداء العبادات وبين منجز الحضارة من عمل اليد، فاشترط ستر العورة في الصلاة، وطهارة الماء، بل إن الزكاة لن تكون إلا بعد غنى أفراد الجماعة المسلمة، وتراكم الأموال والحيوان، وعوائد التجارة، وآثار صناعات التعدين، وغيرها.

4 – استقر في بعض القصص القرآني أثر العمل اليدوي، بما هو منجز حضاري في تغيير أمم كاملة، والانتقال بهم من الكفر إلي الإيمان، وتأمل قصة مملكة سبأ بعد دخول ملكتهم الصرح رأت تقدم منجز سليمان عليه السلام وقومه حضاريًّا أقرت بظلمها نفسها، وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين، والمدهش حقًا هو تعقيب سليمان الذي قال ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾(النمل: 42) وهو ترتيب عجيب يستحق التأمل الطويل؛ حيث جاء العلم قبل الإسلام.

وهذه العلامات كفيلة بأن تصحح مسيرة المجتمعات الإسلامية التي تهمش التعليم الصناعي، وتؤخر رتبته في أبناء الأمة.

ب – تنمية الملكات العلمية (العلم):

وفي فرع ثان لتنمية الإنسان في التصور القرآني، يظهر العلم أساسًا فاعلًا في هذه التنمية لملكات الإنسان، بحيث نراه في الدعاء والذي دعا به نبينا ﷺ لنفسه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه: 114) وفي عدد آخر من العلامات، يمكن إيجاز بعضها فيما يلي:

1 – جعل القرآن أساسًا في مؤهلات الملك (إن الله زاده بسطة في العلم والجسم) ليتقدم في الوزن النسبي على القوة والمال معًا.

2 – افتتاح الذكر الحكيم بفعل ظاهر معناه طلب العلم في (اقرأ) مع توافر النص من ذكر العلم، وأدواته، وامتداحه، وامتداح طالبيه.

3 – استقرار فضله في تثبيت قلب النبي ﷺ على ما روي في حديث البخاري من كلام ورقة بن نوفل، وهو رجل عالم بالكتاب القديم الذي ذكر فيه للنبي ﷺ أن الذي جاءه إنما هو الناموس أو الوحي الذي نزل على من سبقه من الأنبياء.

4 – استقر فهم السلف على سبق العلم للإيمان والعمل، وهو ما استخرجه البخاري فيما ترجم به لباب (العلم قبل الإيمان والعمل).

5 – استقرار تسويته بالحياة بما يظهر من حكم النبي ﷺ على أسرى بدر افتداء أنفسهم بتعليم كل أسير عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

6 – استقرار الحكم بتبعية المتعلم للعالم مع تفاوت المراتب، وهو عين ما فهمه القرطبي من قوله تعالى ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(الكهف: 66) ومن عجيب ما قد يظهر في هذه القصة أن الله رتب للعبد الصالح الاشتراط على موسى، وعتابه، وعقابه، ورتب لموسى أن يتابع ويقبل الشرط، ويعتذر عن النسيان، وينزجر بالعقاب للعبد الصالح.

7 – لقد بعث النبي ﷺ زيدا في بعثه لتعلم لغة من اللغات، وفي هذا برهان لهدم من يحاول الانتصار لنوع معرفة في مواجهة إهدار نوع معرفة آخر.

8 – ولقد استقر تقدير القرآن الكريم لأنواع العلم جميعًا؛ فقد قدر المعلومات الغفل من التحليل في مثل: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(النمل: 22) وقدَّر رتبة مقاومة الجهالة، وارتقي بمقام الوحي وجعله حاكمًا ومصححًا لغيره من المعارف.

ومجموع هذه العلاقات تقرر أن العلم جناح ظاهر الأهمية على طريق تنمية الإنسان في التصور القرآني منذ تنزل الذكر الحكيم في مكة المكرمة.

جـ - تنمية الملكات الإنسانية النفسية (التزكية):

وإذا كان الغرب قد خطا أشواطًا واسعة في البابين السابقين- فإن واحدا من سيناريوهات المستقبل ظاهر في تدمير الكون بالمنجز الحضاري المفتقد إلى التزكية.

ومن هنا فإن فضيلة الحضارة في التصور القرآني ظاهرة في ترشيد تنمية الملكات الإنسانية العملية والعلمية بما يضبط حركتها وآثارها بروح التزكية.

وفيما يلي محاولة لتأمل هذا الفرع الخطير في قائمة صوانع التنمية الإنسانية.

1 - لقد أمر الله تعالى بالتزكية بما هي تطهير شامل للنفس الإنسانية، وبأساليب متنوعة في مثل قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾(الشمس: 9) وقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾(الأعلى: 14) وكما ورد فى الدعاء المأثور (وزكّها أنت خير من زكّاها).

وهذا التنوع يضخّم من قيمة الأمر بها، وهي قائمة على جناحين، جناح الهبة الربانية ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾(النساء: 49) وجناح الجهد البشري، وفي هذا السبيل رسم الشرع الحكيم طريقًا من إجراءات كثيرة لصناعة التزكية.

2 - يظهر من فحص مقاصد العبادات أنها محققة للتزكية والتطهير؛ فقد جعل الله تعالى العبادات المادية طريقًا للتزكية: فالوضوء والصلاة، والصوم، والحج عبادات مقصود في بعض قوائم مقاصدها تحقيق التزكية لممارسيها، وطلب تحقيق التزكية ظاهر في النص عليها، فالصلاة مرتبطة بنفي البغي والمنكر والصوم لخلق التقوى، والزكاة للطهرة عمومًا وخصوصًا، والصدقة للتطهير.

3 - وقد جعل الله سبحانه حفظ البدن من المعاصي سبيلًا للتزكية والتطهير، وهو ما يظهر من قوله تعالى ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾(النور: 30).

4 – وجعل الله تعالى التلاوة والعلم والحكمة سبيلًا مألوفًا لتزكية الأنفس يقول تعالى ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البقرة: 129).

5 – وقد حذر القرآن الكريم من سبيل سلوك التزكية عن طريق اغتيال الطبيعة البشرية، فرعى الغريزة ووضع منهجًا لإشباعها فأباح الطعام، وأباح لذاذاته، وأباح الزواج وأثاب على متعه، وقد كان ظاهرًا تشديد التطبيقات النبوية في هذا المقام على من يبالغ في اغتيال الطبيعة البشرية، ولو في طريق طلب تحقيق التزكية.

6 – وقد استقر في التصور القرآني منذ مكة أن التزكية لا تعني إسقاط التدبير، وهو ما فهمه المفسرون من قوله تعالى ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾(الكهف: 62)، مما يدل على أثر عمل الزاد في الرحلة، ومن المدهش أن نرى العبد الصالح، وليًا كان أو نبيًا وفتاه حملا الزاد وانشغلا به حين دبَّرا للرحلة.

7 – وقد استقر في التصور الإسلامي التسوية بين الرجال والنساء في تحقيق مقام الولاية إذ كَمُل من الرجال كثيرون، وكَمُل من النساء أيضًا عدد منهم مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم.

8 – واستقر في الشريعة أن للطعام الحلال أثرًا في تزكية النفس، فقد طلب أهل الكهف من صاحبهم أن يمدهم بما هو أزكى طعامًا، ورتبت السنة استجابة الدعاء من طعامه من الحلال.

9 – واستقر في السنة حياطة الإنسان بمعية الله تعالى في كل الأحوال بما شرعه من الأذكار جميعًا.

خوفًا من انكماش القرآن!

في مواجهة الإيمان بمرونة القرآن، واكتنازه بالحكمة، والخير والهداية فإن ثمة مخاوف حقيقة من أضداد هذه الأوصاف، وهو ما يعني انكماش القرآن لو منعنا من تجديد التفسير للوفاء بمطالب الحياة المتجددة.

لقد حذر بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين من هذا المعنى، الذي يرى أنه بعض ما يمكن فهمه من قوله تعالى الذي يحكي شكاة النبي ﷺ قومه الذين اتخذوا القرآن مهجورًا ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(الفرقان: 30) ويقول الدكتور «خالص جلبي» في كتابه سابق الذكر ص(255 - 256) فيما عنوانه.. انكماش القرآن: إن «القرءان وهو يضم مئة وأربع عشرة سورة نرى أنه على لسان خطباء يوم الجمعة قد انكمش إلى آيات معدودة»!

والدعوة إلى التفسير الجديد للقرآن الكريم هي دعوة إيجابية لمقاومة انكماش القرآن الكريم، ومقاومة كل محاولات هجرانه.

ثانيًا:

حاجتنا إلى تدبر الذكر الحكيم

كان مما أخرجه الإمام الجليل أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتاب «آداب الشافعي» ومناقبه قال: سمعت محمد بن الفضل البزار، يقول: «حججت مع أحمد بن حنبل، ونزلت في مكان واحدٍ معه أو في دار (يعني مكة)، وخرج ابن حنبل باكرًا، وخرجت أنا بعده، فلما صليت الصبح: درت المسجد، فجئت مجلس سفيان بن عيينة، وكنت أدور مجلسًا مجلسًا، طلبًا لأحمد بن حنبل حتى وجدته عند شاب أعرابي، وعليه ثياب مصبوغة، فزاحمته حتى قعدت عند ابن حنبل، فقلت: يا أبا عبد الله: تركت ابن عيينة وعنده من الزهري، وعمرو بن دينار، وزياد بن علاقة والتابعين، وما الله به عليم؟ فقال لي: اسكت، إن فاتك حديث بعلو تجده بنزول لا يضرك في دينك، ولا في عقلك، أو في فهمك، وإن فاتك هذا الفتى أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أحدًا أفقه في كتاب الله، من هذا الفتى القرشي (التأكيد من عندي).

كتاب للتحرير والتنوير

وأنا أحب لك أن تتجاوز بهذه الرواية حدود ما تستشهد به عليه من شأن الإشادة بفضل الشافعي، وعلو مكانته، إلى شيء آخر جليل في هذا السياق، وهو ما عبرت عنه الرواية على لسان أحمد بن حنبل بقوله: إن فاتك حديث

بعلو تجده بنزول لا يضرك في دينك، ولا في عقلك أو في فهمك، وإن فاتك أمر هذا الفتى أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، وبإعمال مبدأ المخالفة يمكن أن نقرر أن فوات الفقه في الكتاب، وفوات تعقله، وفوات تفهمه قائد إلى الإضرار بدين المرء، وعقله وفهمه عن الله تعالى.

وأنا أحب لك قبل أن نسترسل في هذا الحديث المخوف المشتبك، بعدد وافر من مظنات سوء الاستقبال، ولفهم كلامي على أن أشير إلى مجموعة من الملاحظات قبلًا كما يلي:

1ـ أرجو ألا يفهم مما سوف أسوقه تهوين أمر تلاوة الكتاب العزيز، فذلك الزاد الذي لا يصح أن يخلو قلب مسلم منه!

2ـ كما أرجو أن نتخطى بأمثال هذا الخطاب أن نتوقف عند حدود مرتبة التتعتع إلى مرحلة المهارة لا في مجال التلاوة، وإنما في مجال التدبر.

3ـ كما أرجو أن ننتبه إلى مسألة مهمة جدًّا، تغيب في كثير من الأوقات مع شهرتها واستفاضة هذه الشهرة، وهي أن القرآن الكريم كتاب نزل ليحكم، ونزل ليحرر الحياة، ونزل ليرقى بها، ونزل ليعمل به، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتجاوز القطار الذي يحمله – وهم المؤمنون به – محطة التلاوة، إلى محطات التدبر والمعرفة، ومن هذا الأمر قررنا أن المسلم المعاصر بحاجة ماسة إلى استثمار ذلك النص العزيز الفريد معرفيًا.

توسّع دائرة التحذير من هجر القرآن

ومما يثير الانتباه توقف مفسري القرآن الكريم، أمام قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ (سورة الفرقان: 30)، ومنهم القرطبي الذي يقرر في تفسير (2783) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ يريد محمدا - ﷺ - يشكوهم إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي قالوا فيه غير الحق».

وهذا الذي أجمله القرطبي يحتاج إلى نوع بسط وتفصيل، بحيث يمكننا أن نقرر أن حُمَّى العناية بالتلاوة من عموم المسلمين (عوامهم وخواصهم أو نخبهم) ربما يقودنا إلى أن نقرر أن المسلمين المعاصرين داخلون في عموم من يشكوهم الرسول - ﷺ - بسبب إهمال تدبره، والعمل به، والحركة لاستعادة تحكيمه، وإدارته للعالم الإسلامي.

وربما يزداد هذا الإقرار وجاهة في ظل توجه خصوم القرآن وأعدائه نحو اتهامه بعدد وافر من القبائح، وتوزيع ذلك الاتهام على جوانب عديدة تتعلق بالنص العزيز؛ بدءًا بمصدره وانتهاءً بألفاظه ومفرداته، ومرورًا بتراكيبه وبلاغته وحقائقه وتشريعاته... إلخ، وعكوف المسلمين على ترداد آياته «وهو المفهوم من الاقتصار على عبادة تلاوته» مع إهمال استثماره معرفيًا.

ومما يزيد من مخاطر ما ينتج عن هذا الاستنباط ما ورد في الآية الكريمة من تذييل، يقول فيه سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة الفرقان: 31)، وهو ما قد يعني أننا بإهمال الاستثمار

المعرفي للقرآن يمكن والحال هذه أن يدخل الهاجرون لتدبره، والمكتفون بتلاوته إلى صفوف الأعداء المجرمين لله ورسوله - ﷺ - وهو ما لا يمكن أن يتصوره مسلم في نفسه!

ومن جانب، فإن آخر هجر تدبره واستثماره معرفيًّا قاضٍ إلى نوع من قطعه، وتحوله إلى نص بلا أثر، مما يمثل إضلالًا للجماهير المسلمة، وهو ما مال إلى إقراره «البقاعي» في تفسيره (نظم الدرر 13 / 377)، حيث يرى أن هجره نوع من أنواع الضلالة والمهانة لمرتكبه.

التفسير المأثور للتلاوة

ومما يدعم الدعوة إلى توسيع دائرة الإقبال على القرآن الكريم، ووصله والبر به بصور تفوق صور قراءته وأداء حروفه وألفاظه ما أثر من تفسير الصحابة والتابعين لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ (سورة البقرة: 121)، وقد أخرج السيوطي في تفسيره (الدر المنثور في التفسير بالمأثور 1 / 576) عددًا ضخمًا من المرويات يدور مجملها حول العمل والتحكيم يقول:

1ـ عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ (سورة البقرة: 121) قال: يحلون حلاله ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه.

2ـ وعنه كذلك أن معناها «يتبعونه حق اتباعه».

3ـ وعن عمر بن الخطاب أن معناها: إذا مر بآية فيها ذكر الجنة، سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار.

4ـ وعن ابن مسعود: ولا يتأول منه شيئًا غير تأويله.

5ـ وعن عكرمة معناها يعمل بأوامره وينتهي عن نواهيه.

وهذا المجموع من الآراء المرفوعة حتمًا إلى النبي - ﷺ - استقرت على مفاهيم الاتباع والعمل، وهو ما يجب مراعاته في عملية الدعوة إلى استثمار النص العزيز معرفيًا، ولتكن البداية من الشهر الكريم.

وكيف تعامل معه القدماء معرفيًا؟

وفي هذا السياق نتذكر جميعًا حديث عمر أنْ قرأ البقرة في عشر سنين، لا يتجاوز آية حتى يعمل بها، ويلزم بها نفسه، ومن كانت له ولاية عليهم.

ونستطيع أن نقرأ كيفية استثمار الأمة قديمًا للنص العزيز معرفيًا، يوم كان القرآن الكريم هو الحاكم، والمهيمن على توجيه الحياة في جوانبها المختلفة، ويمكن تأمل المناطق التالية:

1ـ استطاع علم البصريات (الضوء) عند المسلمين باستلهام القرآن معرفيًا، أن تحدث واحدة من كبرى الثورات العلمية التجريبية القديمة الموروثة عن اليونان.

فلقد كان الشائع أن العين تبصر الأشياء، وهو ما عدله الحسن بن الهيثم ليقرر أن العين يسقط عليها الإبصار من خارجها، بمعنى أن تقنية الرؤية تتم عن طريق سقوط شعاع الضوء على العين؛ لتتم عملية الإبصار، وقد كان ذلك بتأمل واستثمار معرفي لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: 12).

2ـ استطاعة علم الجغرافيا عند المسلمين من أثر استلهام الأوامر القرآنية بالضرب في الأرض، وتذليلها أن يكتشفوا عددًا كبيرًا من المواطن، وأن يقدموا معلومات فذة فيما يتعلق برسم خريطة الأرض وقياسات أبعادها.

3ـ استطاع علم اللغة عند المسلمين بوحي من خدمة القرآن الكريم واستلهامه معرفيًا أن يؤسس لتنوع خلّاق في شبكة العلوم القائمة على أمر تفسيره.

هذه مناطق ثلاثة فقط، وبالإمكان أن نزيد زيادة ضخمة جدًّا فيما أثره القرآن الكريم في خريطة المعرفة الإسلامية في مناطق العلوم الشرعية، والعربية، والحكمية، والتجريبية، حتى يصح أن نقرر أن الحضارة الإسلامية التي امتدت ما يقرب من عشرة قرون، ما هي إلا تفسير عملي واقعي لمفهوم التعامل مع القرآن الكريم، وتطبيق داعٍ لمعنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ (البقرة: 121).

المسارات المعاصرة

إننا نستطيع أن نقرر أن قطار التعامل مع النص العزيز مكوّن من عربات كثيرة جدًّا، لكن عربة القيادة التي تجرّ كل العربات هي عربة الاستلهام المعرفي، وقد أمكن قديمًا أن يهيمن القرآن الكريم على جنبات الحياة فيها.

والمأمول اليوم أن يعاد استلهام النص العزيز معرفيًا في المناطق التالية:

أولا: العناية من قبل المسلم المعاصر باليقين في مصدر النص العزيز، وأنه نص إلهي رباني، وأن يتحصن بيقين مدعوم بالأدلة المتنوعة من النقد الخارجي، والنقد الداخلي، والبناء المفاهيمي والمعلوماتي بأن القرآن الكريم نص معجز، لا مجال لشبهة واحدة فيه.

ثانيًا: العناية من قبل المسلم المعاصر بالدوران في فلكه، والانطلاق من حقائقه ومعارفه، وإخضاعها للفحص والتأمل والدرس، والتحري لا لقياس صدقها، بل لإنتاج معرفة نافعة للبشر في المجالات المختلفة.

ثالثًا: العناية بصناعة نسق تربوي منبثق منه، ومحكوم بمعارفه لإعادة تكوين الوعي والوجدان لدى جماعة المسلمين، وهي الطريقة اللازمة لصناعة وحدة الأمة مع ترامي حدودها الجغرافية.

رابعًا: التحيز بالمفهوم المعروف في دراسات علم اجتماع الحضارة لمجموع ما ورد فيه من حقائق تتعلق بنفسية الإنسان، ومجالات تزكيته، وقوانين الصعود الحضاري، والسقوط الحضاري في ارتباطها بحقائق التوحيد، والتشريع، والمنظومة الأخلاقية والقيمية التي أقرها الكتاب الحكيم.

خامسًا: العناية بالحركة الساعية إلى إعادة تحكيمه في البلدان الإسلامية المختلفة.

سادسًا: قراءة النص الحكيم لضوء حركة النبي - ﷺ - باعتبار هذه الحركة النبوية هي الإطار الفاعل الذي ترجم القرآن إلى تطبيق عملي أنتج هذه الحضارة الجبارة.

الوزن النسبي للعبادات

وفي هذا السياق علينا أن نذكّر بمفهوم قارٍ في المحيط العلمي عند فقهاء المسلمين عُبِّر عنه بأكثر من صيغة، منها الاقتصاد في العبادة، والمراد بهذا التعبير الالتفات إلى ما يسمى بالوزن النسبي المتفاوت للأشياء.

وهو ما يتجلى كثيرًا فيما سماه القدماء بتقديم الأوجب عند تعارض الواجبات، فإذا كانت الصلاة واجبة، وإنقاذ إنسان يشرف على الهلاك واجبًا، تقدّم واجب إنقاذ الحياة.

وفي هذا السبيل نقرر أن ضرورة العصر، وفريضة الوقت تلزم المثقفين المسلمين، وعموم المتعلمين في الأمة أن يتوجهوا إلى التعامل مع القرآن بمنطق جديد يرقى بمفاهيم العمل به والتدبر له، والتطبيق لمعارفه والاحتكام - فيما نصدر عنه من أحكام وحركة ودعوة في الميادين المختلفة - إلى النص العزيز.

إن واجب الوقت أن نجتهد في صناعة نظرية تربوية قرآنية، ونظرية إعمار قرآنية ونظرية قانونية قرآنية، ونظرية لغوية قرآنية، ولن يتأتى شيء من هذا إلا بتجاوز قطار الحاملين للقرآن لمحطة التلاوة، والترديد الصوتي إلى آفاق إنتاج المعرفة.

وهنا نلمّح إلى واجبات معينة يلزم تحصيلها على طريق الاستثمار المعرفي للنص:

1ـ بناء يقين معرفي في ارتباط النص بالله سبحانه عن طريق مقومات نقدية خارجية (طريقة وصوله إلينا)، ومقومات نقدية داخلية (طريقة رد الشبهات).

2ـ بناء معرفة أساسية بلغته من مستوى المعجم، والتراكيب والنص، ولا يصح التوقف فيها عند حدود ما قدمه المفسرون القدماء.

3ـ فحص النظريات العلمية المعاصرة في ضوء معارفه.

4ـ مراجعة السنة النبوية الكريمة، مراجعة تأمل واستنطاق؛ لأن السنة هي البيان العملي للنص العزيز.

5ـ مراجعة الإسهام العلمي لعلماء الأمة خلال تاريخها الطويل، مع التركيز على الخلفيات القرآنية التي ألهمت هذه الإسهامات.

إن التعامل مع النص العزيز من بوابة التدبر، ولو قاد ذلك إلى ندرة ختمة تلاوة لفظية، أو على مستوى القراءة، وليعلم الجميع أننا مأمورون بتلاوته حق التلاوة، وحق التلاوة في المفهوم المأثور، والمفهوم المعاصر الضروري يتجاوز - بمراحل واسعة - ما يفعله المسلمون المعاصرون في الاكتفاء بالتنافس مع عدد مرات قراءته!.

obeikandl.com

ثالثًا:

مراجعة القرآن
ضرورة في مراحل التوتر والانتقال

هل صحيح أن القرآن الكريم يفسره الزمان؟!

إن التتابع الذي شهده ميدان تفسير الذكر الحكيم مثير للانتباه، ومحتاج إلى فضل تأمل، لقد درسنا قدرًا كبيرًا من تفسير النبي (ﷺ) لعدد كبير من كلمات الكتاب العزيز وآياته، جمعها أصحاب الصحاح والسنن في مدوناتهم الحديثة تحت عنوان جامع هو: كتاب التفسير، وصل في الحجم إلى الثمن في صحيح البخاري مثلًا، فلماذا نشط الصحابة من بعده (ﷺ) في مجال النظر في الكتاب الكريم وتفسيره حتى طارت شهرة نفر منهم في هذا المجال، ثم لماذا اتسعت رقعة المنجز التفسيري على عصر التابعين وتابعيهم، ثم ظهرت منهجيات ومدارس حكمت مسيرة هذا العلم في منظومة العلوم في الحضارة الإسلامية؟ الأمر يحتاج إلى التأمل.

والسؤال الملح لماذا لم يكتف كل جيل بمنجز الجيل الذي سبقه وقاده إلى استخراج معاني الآيات الكريمة؟ وهو السؤال الذي يفتح الباب واسعًا أمام استدعاء القاعدة العجيبة التي تنسب في العادة إلى الصحابي

الجليل عبد الله بن عباس، والتي تقرر أن القرآن يفسر الزمان، ذلك أن لكل جيل مطالب واحتياجات، وهو ما يفرض على كل جيل معاودة النظر والفحص لهذا الكتاب العزيز، الأمر الذي يحملني على القول بأن القرآن الكريم يتنزل من جديد مع كل جيل!

وهو بعض ما يفسر عندي تجدد الحاجة إلى التفسير، وتنوع أشكاله ومناهجه.

obeikandl.com

الخروج من التوتر

مسالك وقضايا

إن فحص الذكر الحكيم، ومراجعة الذين حاولوا أن يستخرجوا مقاصده وغاياته يقودان إلى تأكيد مجموعة متنوعة من هذه المقاصد والغايات، صحيح أن ثمة تفاوتًا في التعبير عنها، وفي تعدادها، ولكنها مع تقرير هذا التنوع والتفاوت والاختلاف متداخلة متشابكة متفقة.

إن الأمر صحيح إذا كانت: توحيدًا وتزكية للأنفس وعمرانًا للوجود كما يقترح د. طه جابر العلواني، والأمر صحيح إذا كانت عدلًا ورحمة ومساواة عند غيره من المعاصرين، والأمر صحيح كذلك إذا كانت تحريرًا للخلق، وتنويرًا لدروب السعي في الحياة عند آخرين.

وإذا صح ما روي عن ربعي بن عامر- وهو صحيح إن شاء الله- في حضرة رستم قائد الفرس من أن الله أنزل كتابه الكريم وأرسل رسوله (ﷺ)، ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة- فإننا نكون أمام فهم قديم وعريق ومستقر في الأمة يرى في مطلب الهداية التي عبر عنها القرآن الكريم عن غايته وفسر بها سر تنزله مرادفًا لأمرين جامعين وردا على لسان ربعي، ألا وهما:

أولا: تنقية الوجود الفردي والجمعي من أوشاب الشرك وأدران عبادة غير الله تعالى، مع التوسع الشديد في هذا السياق بما يجعله خروجًا للتحرر الإنساني من كل أشكال العبودية لغير الله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: تحقيق مطالب السعة الدنيوية والأخروية، وهي السعة التي تشمل المعاني المادية والمعنوية جميعًا.

ومن هنا فإن إعادة تدبر القرآن الكريم في أجواء التوتر ومراحل الانتقال يمثل ضرورة دينية وضرورة واقعية دنيوية، لتعيين المسارات التي من شأنها أن تسهم في التخلص من أعباء التوتر والضغوط.

ويشتمل الذكر الحكيم على نوعين من النصوص والآيات التي يمكن أن تمثل مسالك لتحصيل النجاة من مراحل التوتر والاحتقان والفتن تتوزع على ما يلي:

أولا: الآيات التي تمثل قواعد كلية، ومقاصد عليا، كالتقوى والتراحم والإخلاص، وغير ذلك.

ثانيًا: الآيات التي تقص علينا قصصَ كثيرٍ من أنبياء الله تعالى، ولاسيما في مراحل التوتر والاحتقان والفتن والأزمات.

ثالثًا: المواقف القرآنية في معالجة المراحل الفارقة في تاريخ الأمة والمنهج في ذلك.

كليات القرآن الكريم الإيمانية

القرآن الكريم كتاب هداية في الأساس، كان هذا وما يزال القول الجامع الفصل في تأسيس النظر إلى الذكر الحكيم، وهدفه الذي يعلنه للناس جميعًا، والتنوع في إعلان هذا الهدف يعكس حرصًا عليه وتوكيدًا له، يقول تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:1 - 6) ويقول تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:2)، ويقول عز وجل ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (يونس:25).

ومدونة آيات الهداية في الذكر الحكيم ترتبط في الغالب بوسائل تحقيقها وتنزلها على الأرض.

وفحص هذه المدونة الجليلة كاشف عن علاقات جديرة بالتأمل والدرس، ذلك أن الهداية تتصادم فلا تتحقق للأفراد والمجتمعات إذ ظهر في الأجواء القيم السلبية التالية:

الظلم، يقول سبحانه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التوبة: 19).

الفسق وعدم كمال الطاعة يقول سبحانه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:24).

ج - الخيانة والغدر والكذب، يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ (يوسف:52)، ويقول سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٌ ﴾ (غافر:28).

وفي المقابل نلاحظ ارتباطًا عجيبًا بين الهدى ومجموعة من القيم الإيمانية الإيجابية الفاعلة في حركة الأفراد والمجتمعات، وهو ما يظهر في الملامح التالية:

ارتباط تحقق الهداية بالاتّباع وكمال الطاعة لله تعالى يقول سبحانه ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ (مريم:43)، ويقول سبحانه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر:38).

التعلق بالذكر الحكيم يقود إلى الهداية، وهو الذي يعني الإيمان والعمل بما فيه. يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ (الإسراء:9)، وربما كان من معانيه استصحاب معية الله تعالى، ودوام مراقبته، يقول سبحانه ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ (الشعراء:62)، وربما كان معناه الاعتصام بالله تعالى يقول جل وعز ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (آل عمران:101).

ويعود الذكر الحكيم فيقرر مجموعة من القوانين الكلية التي ترتب النجاة بمعناها الواسع، وأشكالها المتنوعة لمن حصّل الإيمان وأخلص الدين لله تعالى، والنجاة المترتبة على ذلك تظهر في الكتاب العزيز مطلقة غير محصورة في نجاة الآخرة، ولكن يدخل فيها النجاة في الدنيا بما يعني أن انكسار التوترات مرتبط في كثير من آيات الذكر الحكيم بإخلاص الدين لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ (لقمان:32)، وتحليل الآية بآلية الاستدلال يكشف عن أن إخلاص التوجه إليه سبيل إلى النجاة.

وتتسع العلاقة بين الإيمان والنجاة وتنفتح بغير مقيدات من الزمان أو المكان، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ (هود:58)، ثم تنفتح القضية فلا ترتبط ببيان زمني أو مكاني في مثل قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ (فصلت:18) ويقول تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الزمر:61)، ويقول سبحانه: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ (الأنبياء:88).

إن قيمة هذا الطرح الأولى تتجلى في تأسيسه لقوانين النجاة على الارتباط بقيم الإيمان والتقوى والصدق وعدم الغدر وعدم الخيانة. والنجاة معنى واسع يحتوي في المركز منه دلالات نفي التوتر ونفي المحنة ونفي الفتنة، وما إلى ذلك من سقوط الأزمات المادية والنفسية على السواء.

obeikandl.com

قصص الأنبياء

من المحنة إلى الأمان

لقد كان من فطنة كثير من علماء أحكام القرآن الكريم اعتبارهم القصص القرآني داخلًا في نطاق ما يعرف باسم آيات الأحكام، ونحن نحب أن نوسع المسألة فنقرر أن قصص الأنبياء مدخل جبار لإعادة الاعتبار للفقه الاجتماعي، والنظر في قوانين حركة المجتمعات.

وفي هذا السياق، فإن فحص القصص القرآني يدلنا على مجموعة من العلامات الظاهرة النافعة في التعامل مع مراحل التوتر والانتقال في حياة المجتمعات المسلمة.

لقد ألح الكتاب العزيز على إعلان نجاة الأقوام الذين اتبعوا كل نبي مشفوعًا ببيان إجمالي لأسباب تفضل الله تعالى بنجاتهم، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ (هود:66)، ويقول سبحانه ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ (هود:94)، ويقول تعالى: ﴿ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴾ (الشعراء:65)، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ (البقرة:50)، وقصة موسى (عليه السلام) ينبغي أن تكون مركزًا في تحليل مراحل الانتقال في مصر

على امتداد التاريخ لاعتبارات كثيرة، لعل أهمها تواصل ذلك التاريخ- وتراكم آثاره في طبيعة الشخصية المصرية، هو الأمر الذي يمكن أن يسهم في تفسير تصرفها وسلوكها الحي.

ومن المفيد جدًا تأمل ما استخرجه- مثلا- د. عبد الوهاب النجار من قصة موسى (عليه السلام)، إذ يقرر في كتاب (قصص الأنبياء، مكتبة دار التراث، القاهرة، بلا تاريخ ص358)، أن التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في الأمور باعث على أن يقيض الله تعالى من ينقذ المأزومين ويهيئ لهم من يكون سببًا لنجاتهم، والمدخل المهم في هذا أن نحتاج إلى إخلاص التوكل عليه سبحانه.

كما يقرر الرجل «أن الحق لا يعدم نصيرًا» و«أن الصبر على البلوى حميد العاقبة» وأن استصحاب الحلم والرأفة بالناس ينبغي أن يكون خلقًا أصيلًا، أو استراتيجية ثابتة بلغة هذا الزمان.

إن الله تعالى فيما قصه علينا من قصص أنبيائه يحكم لأقوامهم بالنجاة والنصر بناءً على استحضار عدد من القوانين المهمة التي تعلي من الارتباط بالحق في كل وقت، والتوكل على الله سبحانه ونفض القلب من التوكل على غيره، ومن الصبر الجميل ومن الشفقة بالخلق.

منهج الكتاب العزيز
في إدارة المراحل الفارقة في الأمة

ومن جانب آخر يقود تأمل ما جاء في الكتاب العزيز من آيات تتعلق بمراحل الأزمات في حياة الأمة إلى مجموعة من الحقائق الثابتة.

لقد ألح الكتاب الكريم على تنبيه الأمة في مراحل كثيرة إلى ما كان من أخطائها، ودعاها إلى مراجعة هذه الأخطاء، والإفادة منها، ففي بدر توقف القرآن الكريم أمام مشكلة الأنفال، وما كان من المجتمع بإزائها حتى نتج من جرائها تنازع وصراع على حد تعبير «ابن العربي المالكي» (ت543 هـ) في كتاب أحكام القرآن (2/ 834) إذ يقول «فتنازعا في ذلك»!

ونبهت الآيات الكريمة على مخاطر الاستجابة للفتنة، أيًا ما كان تأويلها ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال:25) ولم تكن قيمة المعركة، وأنها يوم فارق في تاريخ الأمة، ولم يكن النصر الذي تحقق فيها، مانعين من التوقف أمام الأخطاء رصدًا وتحليلًا وحكمًا.

وقل مثل ذلك في «حنين»، التي انتصر فيها المسلمون، ولكنه نصر لم يمنع من ابتداء الكتاب العزيز قصتها بتحليل أخطاء الأمة في المعركة،

لقد كان غرور القوة ظاهرًا، وربما كان هذا الغرور خطرًا ماحقًا يتهدد نبل الفكرة، ويفتن الناس عن قيمها الإنسانية والربانية معًا، لقد أطال القرآن في لغة واضحة جدًا عن هذه الأخطاء فقال سبحانه ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ (التوبة:25) لقد كان العجب أو غرور القوة أو غرور العدة أو قل غرور التنظيم مفتاحًا للهزيمة التي لم تتحول إلا بالتحول إلى قيم الانكسار لله تعالى، والإقبال عليه.

إن مراجعة الأمة لنفسها في حركتها هو الذي رشد مسيرتها وردها إلى مقامات الانتصار، وهو الأمر الذي يؤكد التوبة في الاصطلاح الأخلاقي والشرعي أو المراجعة في الاصطلاح المعاصر أمر أكثر من واجب لترشيد الحركة، وتصحيح المسارات، واستعادة المنهاج النبوي الكريم.

إنني على يقين جازم في أن القرآن الكريم يتنزل من جديد مع كل جيل وفق مطالب هذا الجيل أو ذاك، وتنزله هذا معناه قدرته المطلقة على هداية الأمة بالاستجابة لمطالبها على امتداد الأزمان وتوالي الأزمات، وهو ما يلزم معه ضرورة استدامة النظر فيه، واستصحاب هديه، وتفعيله في الحياة، ومن أجل ذلك كله جاء التحذير واضحًا من هجرانه، والابتعاد عنه.

رابعًا:

تجديد الإسلام فى العصر الحديث

مساراته وزعاماته

مدخل: تجديد الدين: مفهومه وتأصيله ودلالاته.

التجديد فى اللسان العربى مشتق من جذر دائر حول أصول بعينها ترعى العظمة والنضارة معًا. والحديث عن تجديد الدين هدفه استعادة نضارته كأنه الآن يتنزل، سعيًا لبيان عظمته وهو ما يعنى أن عمل المجددين يتلخص فى رد الناس إلى النسخة التى قام عليها ورعاها رسول الله ﷺ، وتحرك بها بين أصحابه رضوان الله عليهم، وهو يعنى كذلك قطع ما بين الدين والمتدينين وكل أشكال الانحراف، والاعوجاج من علاقات؛ أى أنه سعيٌ مستمر لتمثل صورة الإسلام فى بداياتها الأولى، ورياضة الأمة على التأسي بهذا الجيل العبقري الذي صُنِع على عين رسول الله ﷺ.

وقضية التجديد فى ارتباطها بالإسلام محوطة بسياج قوي يؤصل لها، أساسه الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود في سننه في مفتتح كتاب الملاحم 4/ 106 حديث 4291:» عن أبي علقمة عن أبي هريرة، فيما أعلم عن رسول الله ﷺ قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها».

وفي الحديث مناطق ثلاثة تستدعي قدرًا من التأمل، والفحص يمكن بيانها كما يلى:

أولا: الحديث يلح على أن التجديد عملية مستمرة، تظهر مع كل انكسار للأمة، وانحراف فى مسيرتها، وهو بعض ما يستفاد من دلالة المضارع في صيغتي المضارعين (يبعث) و (يجدد).

ثانيًا: الحديث يلح كذلك على ارتباط مطالب التجديد بتباعد الزمان، بمعنى أن انسياب الناس في مسالك الحياة، مؤذِن بتتابع المحن، مُحوِج إلى المراجعة التي هي عين فعل تجديد الدين، ولأمر ما افتتح «أبو داود» كتاب الملاحم به، ذلك أن الملاحم في اصطلاح أهل السنن والسير تعني ضمن ما تعني الفتن، واختلاط الأمور، وضبابية الرؤية، وتعانق المحن، وللأمر نفسه عبّر الحديث عن هذا بلفظ السنة، والسنة في المعجم العربي تطلق عند إرادة التأصيل على الأيام القاسية الشديدة.

ثالثًا: الحديث يلح أيضًا على أن مطالب التجديد تحتاج إلى استفزاز ملكات الأمة جميعًا، وهو بعض ما يظهر من استعمال الاسم الموصول المبهم «من» الدال على العموم.

ويرتبط تجديد الدين في الفكر المعاصر بمطالب الإصلاح والنهضة، وهو بعض ما ظهر عند الدكتور «أحمد أمين» رحمه الله فى كتابه: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، و لاسيما أنه ضم عددًا ممّن سماهم غيره باسم المجددين، كما جاء عند «عبد المتعال الصعيدي» و «أمين الخولي» رحمهما الله فيما كتبه كل واحد منهما عن المجددين في الإسلام.

والإصلاح مراد قرآني تنوع التعبير عنه في الذكر الحكيم تأكيدًا وترسيخًا لطلبه من الأمة، يقول تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (سورة الأعراف 142/ 7) ويقول تعالى: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ (سورة هود 11/ 88)

وتجديد الدين يفتح الباب أمام مجموعة من الدلالات المهمة يلزم تأملها، يمكن إجمالها فيما يلى:

أولا: تأكيد ختامية الرسالة المحمدية، ذلك أن انحرافات الأمم السابقة كانت تقابل بإرسال الرسل، فلما توجهت مشيئة الله سبحانه إلى أن يكون النبي ﷺ ختام الأنبياء والرسل، ظهرت قيمة علماء الإسلام بما هم مجددو الدين.

ثانيًا: تجلي الرحمة الإلهية بالأمة ذلك أن تجدد ابتعاث المجددين مع كل انحراف، أو جور، أو غبش في الرؤية هو عين الرحمة الإلهية بأمة الإسلام.

ثالثًا: تأكيد وجوب فعل الدعوة في الأمة جميعا أفرادًا وتنظيمات، ذلك أن الله سبحانه جعل فعل التجديد منوطًا برقاب الجميع بدلالة «من» العامة في الحديث، وهو ما يؤكده القول الإلهي في الذكر الحكيم:﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ (سورة يوسف 108/ 12)

ولا يظهر الاعتذار لأحد من هذا المجموع، بدليل «من» في الآية أيضًا، صحيح أن فعل الدعوة متنوع، والناس بإزائه متفاوتون من درجة الحفظ والنقل التي هي أقل درجات الدعوة إلى ما فوقها مما لا يحصر من أفعال الوعي والاستنباط والتخريج، والتقعيد، والابتكار.

رابعًا: تأكيد روح الأمل في الأمة، وطرد معاني اليأس والقنوط، ذلك أن فعل التجديد والبعث جاءا دالَيْن على الاستمرار، وهو ما يدعمه المنة الربانية على الأمة الإسلامية بألا يخلو زمان منها، وأنها آمنة من الانقطاع، لا تحيط بها نقمة الاستئصال.

obeikandl.com

تجديد الإسلام في العصر الحديث

منارات الطرق الأساسية

إن فحص منجز المجددين المعاصرين بإزاء قراءة الإسلام وفق الفهم النبوي، ووفق تحرك الصحابة في محاولات جادة لاستعادة هذه النسخة النضرة من هذا الدين العظيم- يقود إلى محاور ومنارات أساسية تتبدى على طريق هذه الفحص لمنجز هؤلاء الأعلام من مجددي الإسلام في العصر الحديث.

وقائمة مجددي الإسلام في العصر الحديث تبدأ من بداياته الباكرة، وفي مواطن متعددة من جغرافية العالم العربي والإسلامي.

صحيح أن نسب التمثيل متغيرة ومتفاوتة من بقعة إلى أخرى، لكن الملاحظ أن حواضر الإسلام التاريخية كانت هي الأعلى حضورًا في قوائم المجددين، لقد منحت مصر واليمن والحجاز وبلاد المغرب والشام جميعًا الإسلام في العصر الحديث قدرًا من المقاومة في وجه محاولات تدويخه وتشويهه والتخطيط لاغتياله عبر جهاد أسماء لامعة من المجددين.

إن الرحلة ما بين «الشوكاني» و «الزبيدي» و «محمد بن عبد الوهاب» من «الجبرتى الكبير» أوائل أجيال المجددين في العصر الحديث، وبين «حسن البنا» و«عبد الرازق السنهوري» و«محمد الغزالي» و«سيد قطب»-

طويلة جدًا عرفت أسماء كثيرة وكبيرة جاهدت من أجل نضارة الفكرة الإسلامية، واستعادة عظمتها، وإحيائها على المنهج النبوي.

ومن الإجحاف أن نحكم على هؤلاء الأعلام المجددين بمنهج غير منهج المقاصد، بمعنى أن لا يصح أن ينال أحد من هؤلاء بسببٍ مما يراه خطأ ارتكبه في مسيرته التجديدية؛ لاعتبارات متنوعة يأتي في مقدمتها أن الناس بمجمل منجزهم، وأن الناس بمقاصد ما يسعون إليه، وبسبب آخر مهم جدًا هو أن منطق الريادة شديد الوعورة يتهدد السائرين فيه ويعرضهم بسببٍ من جدّته لكثير من المزالق.

ظالم من يحاكم «جمال الدين الأفغاني» أو «محمد عبده»، أو «حسن البنا» أو غيرهم بمنطق الحساب بالقطعة، هؤلاء وغيرهم نبلاء في زمان كاد اللئام أن يفترسوا الإسلام، لولا فضل الله تعالى على الأمة المتمثل في ابتعاثهم لغاية تجديد الإسلام لما علم مصير هذا الدين العظيم.

وتتبدى أربع منارات أساسية على طريق فحص منجز هؤلاء المجددين جميعًا يمكن أن نجملها فيما يلي:(وهي أربعة لا نزعم إحاطتها بتفاصيل ما قدموه على طريق تجديد الإسلام في العصر الحديث).

أولًا: صناعة الإنسان.

ثانيًا: تحرير الأوطان.

ثالثًا: مقاومة الاستبداد والطغيان.

رابعًا: إعادة الاعتبار للعمران.

المنارة الأولى: صناعة الإنسان:

لفظ الصناعة قديم في الاستعمال العلمي العربي يتعلق بكل فكر منظم يتوخى إنتاج معرفة منضبطة، ومن أجل ذلك سميت كثير من العلوم العربية والإسلامية باسم الصناعة، فشاع تعبير صناعة الفقه، وصناعة النحو، وهلم جرًّا.

ومن ثم فإضافتها إلى الإنسان ليست بدعًا ولا شيئًا مستطرفًا يغازل شهوة المجاز، وإنما هو تعبير حقيقي يقصد من ورائه البحث عما به يكون الإنسان إنسانًا حقيقيًا مستأهلًا للاستخلاف، أو كما يسمى في الأدبيات الصوفية بالإنسان الكامل.

وقد تجلى في فكر المجددين المعاصرين من بدايات حركة تجديد الإسلام في العصر الحديث علامات التنبه إلى أهمية صناعة الإنسان، فقد أدرك كثير من المجددين بدءًا بمحمد بن عبد الوهاب ووصولًا إلى حسن البنا.

وظهرت ملامح هذه الصناعة في رعاية المباديء الأساسية التالية:

أولا: استعادة نضارة التوحيد، عن طريق ابتعاث المفهوم الإيجابي الذي جلاه النبي ﷺ وربّى عليه صحابته عليهم رضوان الله تعالى، واتسم بالبساطة والوضوح والمنطقية وعدم التناقض، وانسجامه مع الفطرة الإنسانية النقية الصافية عن طريق التعليم والاقتداء والدأب فى بيان حقائقه، مع الحرص على بيان إحاطته بالكليات اللازمة لبناء إنسان العقيدة في توزعها على الإلهيات والنبوات والسمعيات، وصولًا إلى مرتبة التصديق واليقين المستصحب للاطمئنان.

وفي هذا السياق يظهر جهد ابن عبد الوهاب في هذه المضمار جليًا واضحًا، ويتلخص في منجز «حسن البنا» مركزًا في متطلبات الإنسان الأولية التي يلخصها قاعدة:»سليم العقيدة»

ثانيًا: تقدير حرية الإنسان، ذلك أنه قد اتضح بصورة جليّة تركز أجيال المجددين على تقدير تحرر الإنسان باعتباره ذلك أساسًا في صناعته لدرجة حُدّت بواحد من أئمة التجديد الإسلامي المعاصرين في الغرب العربي أن يصنف مقصدًا كليًا سادسًا يتعلق بمقام الحرية الإنسانية- هو «محمد الطاهر بن عاشور»، وفي هذا السياق ظهر أن هذا الحرص على تربية الإنسان وفق استحقاقات التحرر مستمد من الفهم الراشد الذي وصل إلى جيل الصحابة رضي الله عنهم، وهو بعض ما يتبدى من كلمة الصحابي الجليل «ربعي بن عامر» عندما قال:» إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وارتباط التحرر الإنساني بالتوحيد أمر ظاهر الاستعلان في فكر المجددين، ذلك أن هيمنة الرب سبحانه على الحياة والأرزاق هو الضامن الأصيل لكل منابع الحرية الإنسانية، بمعنى أن كمال التوحيد، وإتقانه يفضي إلى التحرر الإنساني من كل صور العبودية بين البشر.

ثالثًا: إعادة الاعتبار للتوازن بين المادي والروحي؛ ذلك أن شكلًا من أشكال الانحراف التي تستوجب التصدي لها هو الفصل بين المادي والروحي والجنوح المتطرف إلى جانب أحدهما مع إهدار كامل أو شبه

كامل لمقدرات الجانب الآخر، وهو استدعى جهادًا متميزًا من كثير من المجددين المعاصرين لإعادة الاعتبار للجانبين معًا، بحيث تقدر متطلبات المادة، مضمومًا إليها متطلبات الروح.

وهو ما تجلى في الدعوة إلى العناية بالعلوم الحكمية من طب وهندسة وفلك وكيمياء وزراعة، بعد أن طُردت زمانًا من أروقة العلم عند المسلمين في معاهدهم التقليدية العريقة.

رابعًا: التأكيد على المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، بما هما إنسان كامل الإنسانية، لقد تخلف العالم الإسلامي كثيرًا بسببٍ من الهدر الذي أصاب ملكات المرأة، وتغييبها عن جهاد الأمة في سبيل الترقى والنهوض، فجاهد نفر كبير من مجددي العصر الحديث في سبيل استعادة مجموعة من حقوق النساء على هدي ما كان شائعًا من تكريم النبي ﷺ، واستعمالهن في خدمة الدولة المسلمة وبنائها، ونهضة مجتمعها، في السلم والحرب جميعًا.

وهذه الدعوة المعاصرة أعادت التركيز على المراد القرآني من عدم التفرقة بين الذكر والأنثى، وأنهما من أصل واحد ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (سورة النساء 1/ 4) وهو ما حمل عددًا منهم على القول بنبوة النساء متابعة لابن حزم الذي عقد بابًا لنبوة النساء في كتابه (الفصل في الملل والنِّحل)، وهو ما جنح إليه المفكر الإسلامى المعاصر «راشد الغنوشي» في كتابه المهم (المرأة بين القرآن الكريم وواقع المسلمين).

خامسًا: إعادة الاعتبار لأصحاب الملكات وأهل الكفاءات، فقد ظهر من تحليل المجددين لأحداث السيرة النبوية المشرفة عناية بالغة بالإنسان

صاحب الملكات المؤهل الكفء، ووقف عدد كبير منهم أمام حادثة الهجرة العظيمة ليقرروا أن ما ظهر من سر أحداثها يصب في باب تقدير الكفاءات من دون النظر إلى أي أبعاد أخرى، بحيث نشهد توظيف الرجال والنساء، والكبار والشباب والمسلمين وغير المسلمين، لقد كان المعيار الحاسم في تأسيس الدولة الإسلامية في العصر النبوي.

لقد تراكم مجهود جبار بداية من انطلاق حركة تجديد الإسلام في العصر الحديث ابتداء من «الشوكاني» و «الزبيدي» و «ابن عبد الوهاب» و «الجبرتي الكبير» حول صناعة الإنسان المسلم المعاصر، واستجمعت خيوطها لتنسج ثوبها الكامل فى الطرح الذي قدمه الشهيد «حسن البنا» عندما قرر تنظيرًا، وربَّى أتباعه تطبيقًا على المباديء التالية:

- **سلامة العقيدة (سليم العقيدة)**
- **صحة العبادة (صحيح العبادة)**
- **ثقافة الفكر (مثقف الفكر)**
- **تنظيم الشئون (منظم في شئونه)**
- **قدرة الكسب (قادر على الكسب)**
- **قوة البدن (قوي البدن)**
- **متانة الخلق (متين الخلق)**

وبهذه المنظومة ظهرت أجيال مسلمة احتفظت بجذوة الإسلام حية في الضمير والوجدان والعقل المعاصر.

ومخطئٌ من يتصور أن الربيع العربي المعاصر الذي تَعيش بداياته عدد من الدول العربية والإسلامية المحورية مع كل مشكلاته – كان بمعزل عن جهاد المجددين الإسلاميين المعاصرين في ميدان صناعة الإنسان المسلم المعاصر، احتفظ بالإسلام في النفوس على الرغم من عمليات التشويه والتدويخ المتتابعة التي توجهت نحو هذا الدين العظيم في العصر الحديث.

المنارة الثانية: تحرير الأوطان

للوطن في التصور الإسلامي عمومًا، وفي التصور الإسلامي المعاصر على وجه خاص منزلة رفيعة على عكس ما يشيعه خصوم الحركة الإسلامية.

وهي منزلة تأسست في فكر المجددين المعاصرين من مصادر أساسية ثلاثة هي:

نصوص الذكر الحكيم.

ونصوص السنة المطهرة، وفعل رسول الله ﷺ.

وأدبيات أعلام الفكر الإسلامي على امتداد التاريخ تجلى في فقه كثير من الفقهاء الذين رفضوا التخلي عن الأرض والدفاع عنها والمرابطة فيها.

لقد كان عجيبًا أن يقف كثير منهم أمام قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (سورة النساء 66/ 4) فيرون فيه تسوية بين الحياة والبقاء في الأوطان، أو بين الموت والقتل والإخراج أو الطرد منها.

وقد تجلى في فكر الإسلاميين عمومًا باستثناءات نادرة تولى الرد عليها علماء الإسلام أنفسهم - مجموعةُ علامات تتعلق بأصل جامع من أصول تجديد الدين في العصر الحديث فيما يتعلق بمحور مركزي من جهاد التجديديين يتعلق بتحرير الوطن يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا: استعادة ثقافة التسوية بين الحياة في الأوطان والحياة الحقيقية، وهو ما يعني أن الطرد أو النفى أو الإخراج يتساوى مع قتل النفس وفقدان الحياة، وهو بعض ما فهمه عدد من المجددين من آية سورة النساء السابق ذكرها هنا.

ثانيًا: اعتبار حمل السلاح دفاعًا عنه ضد أعدائه، أو استرداده من أيدي محتليه- من أوجب الواجبات، ومن أقدس الفرائض، وهو ما يتضح في تفسير «سيد قطب» لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ (سورة البقرة 246/ 2) حيث قرر أن الدفاع عن الأرض والوطن واجب بالمعنى الشرعي وعلامة على يقظة الإيمان في النفوس كذلك.

ثالثًا: الانخراط العملي في حركات تحرير الأوطان من ظلم الاحتلال في العصر الحديث، فالتاريخ يشهد أن عبء طرد الغزاة المعاصرين لبلادنا وقع ابتداءً وبدرجة عظيمة على عاتق المجددين الإسلاميين عمومًا، ومن تبعهم من أبناء الحركات الإسلامية التي اعتنوا بها، وأرجو مراجعة أسماء من مثل: البشير الإبراهيمي، والسنوسي، والمهدي، وحسن البنا، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وغيرهم، وهو الأمر الذي يؤكد أن عملية تجديد الدين في هذا المحور المهم لم يقف عند حدود التنظير العلمي،

وإنما تجاوزه إلى الحركة الواقعية على الأرض، لقد دفع كثير من المجددين المعاصرين ثمنًا باهظًا وحقيقيًا في سبيل تحرير أوطانهم، فنُفيَ وشُرّد وطُورد عدد كبير منهم، وسُجن وعُذب وقُتل عدد آخر.

رابعًا: إعادة الاحتفاء بالروابط العاطفية بالأوطان

لقد تجلى في قراءات المجددين للسيرة النبوية وحركة الصحابة بالدين حفاوة ظاهرة بما يصب في باب الارتباط العاطفي والوجداني بالأوطان، لقد برزت روايات تنشق الصحابة تراب مكة المكرمة ساعةَ منَّ الله سبحانه عليهم بفتحها، وبرزت روايات بكاء النبي ﷺ في وداعه مكة المكرمة وهو يخرج منها مهاجرًا، وبرزت روايات حنين الصحابة إلى بقاع مكة المكرمة، وتسليهم بذكر الأشعار التي تحتضن هذه الأسماء من مثل:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وما كانت تفعله في قلوب سامعيها، من اضطراب ووجيب!

خامسًا: ويبقى الوطن مع تطور مفهوم الجنسية

لقد تطور مفهوم الجنسية في الفكر الإسلامي، وظل لفترة طويلة من تاريخ الإسلام قرين الارتباط به، حتى غدت كل أرض الإسلام وطنًا لكل مسلم، وهو ما يؤكده ما كان يدوَّن فى خانة الجنسية في بطاقات المواطنين؛ حيث كان يكتب كلمة (مسلم).

وتضييق مفهوم الجنسية ليرتبط بالبقاع الجغرافية مفهوم حادث بعد سقوط الخلافة العثمانية، وتقسيم العالم الإسلامي، وترسيم الحدود وفقًا لخطة الاستعمار المعاصر.

ومع ذلك الارتباط الإقليمي المتأسس على حدود جغرافية وأبعاد قومية- ظل الارتباط بالوطن والدفاع عنه وافتداؤه هو الأساس الفاعل في فكر المجددين الإسلاميين المعاصرين.

وبدا ذلك واضحًا، يقول «حسن البنا» في رسالة (دعوتنا في طور جديد):» إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة من الأرض نبتنا فيها ونشأنا عليها» والرجل كما هو واضح - وهو حصاد تراكم وتجسد عنده من عمل رجالات التجديد- يعرف قيمة الوطن بمعناه الضيق بما هو أرض جغرافية فُرِض على الإنسان قدَرًا الارتباط به، ويتمثل محددات هذه القيمة في:

- أنها بقعة كريمة (البعد الحضارى للوطن)
- أنها سبب إنبات الجسم (البعد البيولوجي)
- أنها مستقر النشأة والحياة (البعد الاجتماعي)

ويواصل الرجل مقررًا أن محددات الإيمان الإسلامي تبعث على:

1 - ضرورة الاعتزاز بالوطن.

2 - الإخلاص له.

3 - العمل والجهاد في سبيل تقدمه ورفعته.

4 - الاستمرار والمداومة على حفظ هذه الحقوق له.

لقد نبَّه غير مؤرخ في مقدمتهم «طارق البشري» أن التجديد الإسلامي أمدَّ الجماعة الوطنية بمدد وافر في رحلة البحث عن الاستقلال الوطني.

إن تحرر الأوطان من الاستعمار الأجنبي الذي تم لكل شعوب العالم العربي، وتحرر الأوطان من الاحتلال الوطني الذي بدأت أولى فصوله في مصر وتونس وليبيا ثمرة من ثمارات تجديد الدين في العصر الحديث.

المنارة الثالثة: مقاومة الاستبداد والطغيان:

يقرر تاريخ المجددين المعاصرين أن كثيرًا منهم صنفوا معارضين لأنظمة الحكم التي كانت قائمة في أزمنة حركتهم لخدمة الإسلام، ذلك أنهم رأوا في هذه الأنظمة أحد أمرين أو الأمرين مجتمعين:

1 – ركون هذه الأنظمة إلى الاستبداد والطغيان، وظلم شعوبهم والاستئثار بخيرات أوطانهم، وإرهاق كواهل أبناء هذه الأوطان من عموم شعوب الدول العربية والإسلامية.

2 – متابعة هذه الأنظمة للمحتل الغازي، ورعايته، ورعاية مصالحه.

وكان من أثر ذلك انخراط عدد كبير جدًا من مجددي الإسلام في العصر الحديث في مواجهة هذه الأنظمة مما جرَّ عليها متاعب جمة توزعت على الطرد والنفي، أو الاعتقال والسجن، أو القتل في أحيان أخرى.

وتاريخ الأفغاني ومحمد عبده وحسن البنا وعبد الرازق السنهوري وسيد قطب وسعيد النورسي وغيرهم دليل ظاهر على ما نقرره.

وقد كانت حركة كثير منهم كافية في إثبات مواقفهم الإيجابية المؤيدة من ضرورة مواجهة الظالمين المستبدين، وجنح آخرون إلى جانب التنظير، وإثبات الأدلة الشرعية على مواقفهم الحركية في مواجهة الاستبداد والطغيان، فاستشهد محمد عبده بخروج الحسن والحسين والزبير على معاوية بن أبى سفيان، وعلى يزيد بن معاوية وعلى عدد من خلفاء بنى أمية، على صحة كل حركات مواجهة الطغيان والاستبداد.

وطور حسن البنا هذا التنظير فقرر أن الثورة قد تكون طريقًا للتغيير حين لا يجدي غيرها، صحيح أنه اختار الطريق الطويل وهو تربية أبناء الأمة، لكنه نظريًا وعمليًا اشترك هو وجماعته في مقاومة أشكال متنوعة من الاستبداد والظلم والطغيان.

وتجمع من جهاد كثير من مجددي الإسلام المعاصرين عدد من الأدلة التي تدعم قضية مقاومة طغيان الطغاة يمكن تمثلها فيما يلي:

1 – الأصل في الأشياء الإباحة، وروح الشريعة العامة التي تتراجع بالظلم، وتنعى على الظالمين، وتشنّع عليهم، وتبالغ في ذَمّهم.

2 – مواجهة الاستبداد من أجل أنواع الجهاد وأعظمه، وتزكية السنة المطهرة لفعل المقاومين في مثل:

«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»

تقرير رسول الله ﷺ لمن واجه مسيلمة بكفره فقتله بقوله « طوبى له» في مقابل سكوته على من وارى، ولم يعالن مسيلمة بفساد موقفه.

ممارسات عصر النبوة في تقبل مطالبات أصحاب الحقوق من دون النظر إلى الأساليب ولو كانت غليظة، تعليق رسول الله ﷺ قائلًا:«إن لصاحب الحق مقالًا»

ممارسات عصر الراشدين الذين سمعوا إلى آحاد الرعية، وهم يهددون بحمل السلاح لو لم يسر الخليفة في الناس بالعدل، ومثاله قول القائل:«لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا»

استمرار ممارسات عصور الإسلام المختلفة وتصدّر علماء الجامعات الإسلامية العريقة كالأزهر وغيره أعمال مواجهة الاستبداد في عصورهم المختلفة.

وجود نصوص تدعم فكرة التحرك لمواجهة الظلم والاستبداد والتضييق على الناس، ومنه حديث إسلام عمر رضى الله عنه حيث جاء فيه:» لما أسلم عمر بن الخطاب ودخل دار الأرقم بن أبي الأرقم معلنًا الشهادتين، قال رسول الله: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم، قال فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجنا في صفين (مثنى صف) حمزة في أحدهما وأنا (أي عمر) في الآخر، له كديد ككديد الطحين (أي صوت مرتفع صاخب) حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق».

ولعل أهم الأصوات في هذا السياق كان هو صوت «عبد الرحمن الكواكبي» الذي فحص مسألة الاستبداد في كتابه العلامة (طبائع الاستبداد)، يقول الدكتور «محمد عمارة» في دراسته الافتتاحية بين يدي الأعمال الكاملة

(دار الشروق ص2 ص174):«كما أننا نبصر في كثير من الصفحات التي حررها «الكواكبي» جهدًا دائبًا للإعداد للثورة، عملًا متواصلًا لتهيئة الجو لقيامها، فهو يريد أن يشجع الناس على مطاولة المستبدين والانقضاض عليهم.. ويستحث الناس ويدفعهم إلى التحرك للانقضاض على المستبد عندما يقول:» إن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه؛ لأن خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشيءٌ عن جهل، وخوفه من انتقام بحق، وخوفهم عن توهم التخاذل، وخوفه من فقد حياته و سلطانه، وخوفهم من لقيمات من النبات».

وفي نص الكواكبي معرفة عميقة مؤسَّسة على معطيات علم النفس وعلم الاجتماع توشك أن تكون قواعد مستقرة.

ويدخل الكواكبي وغيره في بعث روح المقاومة في نفوس الشعوب من مدخل معالجة أسباب الفتور والركون والدعة في آحاد الأمة، فيقرر على ما التقطه الدكتور «محمد عمارة» أن مقاومة ما يلي في النفوس سيسهم في بعث روح جديدة في الأمة تحملها على إزاحة المستبدين، وهذه الأسباب هي:

1 – عقيدة الجبر والزهد المفضية إلى التصوف السلبي.

2 – انعدام التنظيمات وفقدان الاجتماعات والمفاوضات.

3 – الإغراق في الشهوات الحسية.

4 – اختلال التوازن بين الدنيا والآخرة.

وهذه الأربعة وجدت مسارات موازية تسير في اتجاه محوها والقضاء عليها، فقامت حركات المجددين المعاصرين تقاوم في أنفس المسلمين المعاصرين ما يلى:

رفض عقيدة الجبر والزهد المفضية إلى التصوف السلبي بإعادة إحياء مفاهيم التوحيد وفق المنهج النبوي (محمد بن عبدالوهاب وحسن البنا)

السعي إلى إيجاد تنظيمات تعمل للفكرة الإسلامية (الكواكبي/ حسن البنا)

إعادة الاعتبار للجانب الروحي في مقابلة الإغراق في الشهوات المادية (سعيد النورسي)

إعادة الاعتبار للتوازن بين الدنيا والآخرة (فكرة الدين الشامل في فكر حسن البنا).

المنارة الرابعة: إعادة الاعتبار لفقه العمران:

جاء الإسلام فظهرت منذ بدايات تأسيسه للدولة عنايته البالغة بإقامة المؤسسات الجارية، وهو ما ظهر من الحرص على افتتاح الوجود في المدينة المنورة ببناء المسجد الذي كان أكثر من مجرد مسجد لإقامة الصلوات؛ حيث استثمر المسجد مكانًا للعلاقات مع الكيانات الخارجية، ميدانًا للتدريب القتالي، ومجلسًا نيابيًا للتشاور فيما يأزم الدولة الإسلامية الوليدة في ذلك العصر النابه الرشيد، ومدرسة تخرج منها أعاظم العلماء والفقهاء، ومؤسسة إيواء آوت وحَمَت طائفة من فقراء المجتمع.. إلخ.

وجاء العصر الحديث فأعاد عدد من المصلحين والمجددين الاعتبار لفقه العمران، والعناية بالمؤسسات الحضارية، وابتعثت البعثات لتحصيل علوم الحضارة المختلفة، وكان هذا التوجه عملًا راشدًا بأثر ما أشاعه أمثال «الجبرتي الكبير» مجدد عصره من عناية بعلوم الميكانيكا والمخترعات الصناعية.

ومن أجل ذلك وبتأثير من جهود المجددين المعاصرين تنامى ظهور المؤسسات الحضارية في الصور التالية:

1. إنشاء الجامعات في البلدان العربية المختلفة، على أثر من دعوات التجديد التي أرادت إعادة مجد الحضارة الإسلامية في عصور قوتها ونهضتها، وكان قيام جامعة القاهرة (الجامعة الأهلية القديمة) أثرًا من آثار تنامي التأثير الذي أحدثه «الأفغاني» و«محمد عبده» و«رشيد رضا» في المجتمع المصري.
2. إنشاء خطوط السكك الحديدية الرابطة بين دول العالم العربي، وكان قطار الشرق، أو قطار الحجاز القديم، واحدًا من المشروعات التي تأسست بسببٍ من الرعاية لفكرة الجامعة الإسلامية الموحدة لأقطار الوطن العربي والإسلامي.
3. التوسع في تأسيس جمعيات المجتمع المدني أو الجمعيات الأهلية للشراكة في ترقية المجتمعات العربية، ولعل تأسيس «الأفغاني» و «محمد عبده» لبعض الجمعيات في باريس دليل على ما نقرره بعدما حيل بينهما وبين العمل الأهلي في مصر.
4. التوسع في إنشاء الصحف والمطابع إيمانًا بأن الوعي المؤسس على العلم هو أسرع طريق لتحقيق الرقي والنهضة.

لقد آمن المجددون والمعاصرون بقدرة الإسلام الذاتية إلى استعادة القدرة على قيادة الحياة، فقرروا بعثه من جديد، وما تزال آثار تجديدهم فاعلة إلى الآن.